التفسير التحليلي

مكتبة
جامعة الأندلس
الرقم العام:
الرقم الخاص:
....

فتح القدير

عمري

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

ديمار

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

حققه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه

لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الرابع

تفسير سورة الزمر

هى إثنتان وسبعون آية . وقيل : خمس وسبعون . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر بن زيد . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه ،والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الزمر بمكة . وأخرج النحاس فى ناسخه عنه قال : نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة فى وحشى قاتل حمزة : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الثلاث الآيات . وقال آخرون : إلى سبع آيات من قوله : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ إلى آخر السبع . وأخرج النسائى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر (١) . وأخرجه الترمذى عنها بلفظ : كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة ، أى هذا تنزيل . وقال أبو حيان إن المبتدأ المقدّر لفظ هو ليعود على قوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [ص : ٨٧] كأنه قيل : وهذا الذكر ما هو ؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب . وقيل : ارتفاعه على

(١) النسائى ٤/١٩٩ وفى التفسير (٤٦٤) وأخرجه أحمد ٦/٦٨ والحاكم ٢/٤٣٤ وسكت عنه ووافقه الذهبى .
(٢) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور بعده ، أى تنزيل كائن من الله ، وإلى هذا ذهب الزجاج والفراء . قال الفراء : ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل ، وأجاز الفراء والكسائى النصب على أنه مفعول به لفعل مقدّر ، أى اتبعوا أو اقرؤوا تنزيل الكتاب . وقال الفراء : يجوز نصبه على الإغراء ، أى الزموا ، والكتاب هو : القرآن ، وقوله : ﴿ **من الله العزيز الحكيم** ﴾ على الوجه الأول صلة للتنزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدّر ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ** ﴾ الباء سببية متعلقة بالإنزال ، أى أنزلناه بسبب الحقّ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف هو حال من الفاعل، أى ملتبسين بالحقّ ، أو من المفعول ، أى ملتبسا بالحق، والمراد : كلّ ما فيه من إثبات التوحيد والنبوّة والمعاد وأنواع التكاليف . قال مقاتل : يقول : لم ننزله باطلا لغير شىء ﴿ **فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وانتصاب ﴿ **مخلصا** ﴾ على الحال من فاعل اعبد . والإخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه ، والدين : العبادة والطاعة ، ورأسها توحيد الله وأنه لا شريك له . قرأ الجمهور : ﴿ **الدين** ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿**مخلصا** ﴾ . وقرأ ابن أبى عبلة برفعه على أن « مخلصا » مسند إلى الدين على طريقة المجاز. قيل : وكان عليه أن يقرأ مخلصا بفتح اللام . وفى الآية دليل على وجوب النية وإخلاصها عن الشوائب ؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية التى لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر فى الأقوال والأفعال النية، كما فى حديث: «إنما الأعمال بالنيات »[1] . وحديث : «لا قول ولا عمل إلا بنية » .

وجملة : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص ؛ أى إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو لله ، وما سواه من الأديان فليس بدين الله الخالص الذى أمر به . قال قتادة : الدين الخالص : شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء** ﴾ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص، وأن الدين الخالص له لا لغيره، بين بطلان الشرك الذى هو مخالف للإخلاص والموصول عبارة عن المشركين ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله : ﴿ **إن الله يحكم بينهم** ﴾ . وجملة : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول، والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، والمعنى : والذين لم يخلصوا العبادة لله ، بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشىء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريبا والضمير فى ﴿ **نعبدهم** ﴾ : راجع إلى الأشياء التى كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام ، وهم المرادون بالأولياء ، والمراد بقوله : ﴿ **إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ : الشفاعة ، كما حكاه الواحدى عن المفسرين . قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم : من

---

(١) أحمد ١/ ٢٥ والبخارى فى بدء الوحى (١) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧/ ١٥٥) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٠١) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٤٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ١/ ٥٨ وابن ماجة فى الزهد (٤٢٢٧) .

ربكم وخالقكم ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ قالوا : ليقرّبونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبى : جواب هذا الكلام قوله فى سورة الأحقاف : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ﴾ [الأحقاف: ٢٨] والزلفى اسم أقيم مقام المصدر ، كأنه قال : إلا ليقربونا إلى الله تقريبا . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد : « قالوا ما نعبدهم ». ومعنى : ﴿ **إن الله يحكم بينهم** ﴾ أى بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازى كلا بما يستحقه ، وقيل : بين المخلصين للدين وبين الذين لم يخلصوا ، وحذف الأول لدلالة الحال عليه . ومعنى ﴿ **فيما هم فيه يختلفون** ﴾ : فى الذى اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد والشرك ، فإن كل طائفة تدعى أن الحق معها ﴿ **إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾ أى لا يرشد لدينه ولا يوفق للاهتداء إلى الحقّ من هو كاذب فى زعمه أن الآلهة تقربه إلى الله وكفر باتخاذها آلهة وجعلها شركاء لله ، والكفار صيغة مبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية . وقرأ الحسن والأعرج : «كذاب» على صيغة المبالغة ككفار، ورويت هذه القراءة عن أنس .

﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى** ﴾ هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات الله، لتضمنه استحالة الولد فى حقه سبحانه على الإطلاق ، فلو أراد أن يتخذ ولدا لامتنع اتخاذ الولد حقيقة ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفى ﴿ **مما يخلق ما يشاء** ﴾ أى يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه ، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له، ولا يصح أن يكون المخلوق ولدا للخالق لعدم المجانسة بينهما ، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبدا كما يفيده التعبير بالاصطفاء مكان الاتخاذ ، فمعنى الآية : لو أراد أن يتخذ ولدا لوقع منه شىء ليس هو من اتخاذ الولد ، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته ، وبهذا نزّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزيها له عن ذلك ، وجملة : ﴿ **هو الله الواحد القهار** ﴾ مبينة لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات ، أى هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد فى ذاته فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته ، ومن كان متصفا بهذه الصفات استحال وجود الولد فى حقه ، لأن الولد مماثل لوالده ولا مماثل له سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ﴾ [الأنبياء : ١٧] ثم لما ذكر سبحانه كونه منزها عن الولد بكونه إلها واحدا قهارا ذكر ما يدل على ذلك من صفات فقال : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى لم يخلقهما باطلا لغير شىء ، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد . ثم بين كيفية تصرفه فى السموات والأرض فقال : ﴿ **يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل** ﴾ التكوير فى اللغة : طرح الشىء بعضه على بعض. يقال : كوّر المتاع : إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كوّر العمامة ؛ فمعنى تكوير الليل على النهار: تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه ، ومعنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه

حثيثا ﴾ [الأعراف : ٥٤] هكذا قال قتادة وغيره . وقال الضحاك : أى يلقى هذا على هذا ، وهذا على هذا ، وهو مقارب للقول الأوّل . وقيل : معنى الآية : أن ما نقص من الليل دخل فى النهار ، وما نقص من النهار دخل فى الليل ، وهو معنى قوله : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ [الحج : ٦١] . وقيل : المعنى : إن هذا يكرّ على هذا وهذا يكرّ على هذا كرورا متتابعا. قال الراغب : تكوير الشىء : إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة . ا هـ . والإشارة بهذا التكوير المذكور فى الآية إلى جريان الشمس فى مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادهما . قال الرازى : إن النور والظلمة عسكران عظيمان، وفى كل يوم يغلب هذا ذاك ، وذاك هذا . ثم ذكر تسخيره لسلطان النهار وسلطان الليل، وهما الشمس والقمر فقال : ﴿ **سخر الشمس والقمر** ﴾ أى جعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد ، ثم بين كيفية هذا التسخير فقال : ﴿ **كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ أى يجرى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا ، وذلك يوم القيامة وقد تقدّم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى فى سورة « يس » ﴿ **ألا هو العزيز الغفار** ﴾ ألا حرف تنبيه ، والمعنى : تنبهوا أيها العباد ؛ فالله هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة .

ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته وبديع صنعه ، فقال : ﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾ وهى نفس آدم ﴿ **ثم جعل منها زوجها** ﴾ جاء بثم؛ للدّلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم، وتراخيه عنه لأنها خلقت منه ، والعطف: إما على مقدّر هو صفة لنفس . قال الفراء والزجاج: التقدير: خلقكم من نفس خلقها واحدة ثم جعل منها زوجها . ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة ، أى من نفس انفردت ثم جعل إلخ. والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم؛ للدّلالة على أن خلق حوّاء من ضلع آدم أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة؛ لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة فى خلقه ، وخلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى فى سورة الأعراف . ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته الباهرة فقال : ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** ﴾ وهو معطوف على خلقكم، وعبر بالإنزال لما يروى أنه خلقها فى الجنة ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقة ، ويحتمل أن يكون مجازا ، لأنها لم تعش إلا بالنبات ، والنبات إنما يعيش بالماء والماء منزل من السماء ، كانت الأنعام كأنها منزلة ، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب فى قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقيل : إن نزل بمعنى : أنشأ وجعل ، أو بمعنى أعطى . وقيل : جعل الخلق إنزالا ؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء ، والثمانية الأزواج هى ما فى قوله : ﴿ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ [الأنعام : ١٤٣] ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ويعنى فى الأربعة المواضع : الذكر والأنثى ، وقد تقدّم تفسير الآية فى سورة

الأنعام. ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته البديعة فقال: ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ﴾ والجملة استئنافية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة فى خلقهم، وخلقا مصدر مؤكد للفعل المذكور، و﴿ من بعد خلق ﴾ صفة له، أى خلقا كائنا من بعد خلق. قال قتادة والسدّى: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما. وقال ابن زيد: خلقكم خلقا فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم من ظهر آدم، وقوله: ﴿ فى ظلمات ثلاث ﴾ متعلق بقوله: ﴿يخلقكم﴾ وهذه الظلمات الثلاث هى: ظلمة البطن، وظلمة الرّحم، وظلمة المشيمة. قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك. وقال سعيد بن جبير: ظلمة المشيمة، وظلمة الرّحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرّحم، والإشارة بقوله: ﴿ ذلكم الله ﴾ إليه سبحانه باعتبار أفعاله السابقة، والاسم الشريف خبره ﴿ربكم ﴾ خبر آخر ﴿ له الملك ﴾ الحقيقى فى الدنيا والآخرة لا شركة لغيره فيه، وهو خبر ثالث، وقوله: ﴿ لا إله إلا هو ﴾ خبر رابع ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أى فكيف تنصرفون عن عبادته وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره؟ قرأ حمزة: «إمهاتكم» بكسر الهمزة والميم. وقرأ الكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم. وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم.

وقد أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشى أن رجلا قال: يا رسول الله، إنا نعطى أموالنا التماس الذكر فهل لنا فى ذلك من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: « لا »، قال: يا رسول الله، إنما نعطى التماس الأجر والذكر فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: « إن الله لا يقبل إلا ما أخلص له »، ثم تلا هذه الآية: ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ يكور الليل ﴾ قال: يحمل الليل. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ خلقا من بعد خلق ﴾ قال: علقة ثم مضغة ثم عظاما ﴿ فى ظلمات ثلاث ﴾: البطن والرحم والمشيمة.

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

المسلمين ﴿١٢﴾ ﴾.

لما ذكر سبحانه النعم التى أنعم بها على عباده ، وبين لهم بديع صنعه وعجيب فعله ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم** ﴾ أى غير محتاج إليكم ولا إلى إيمانكم ولا إلى عبادتكم له فإنه الغنى المطلق ، ومع كون كفر الكافر لا يضره كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن ، فهو أيضا ﴿ **لا يرضى لعباده الكفر** ﴾ أى لا يرضى لأحد من عباده الكفر ولا يحبه ولا يأمر به ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ﴾ [إبراهيم : ٨] ومثلها ما ثبت فى صحيح مسلم من قوله ﷺ : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا » (١). وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية هل هى على عمومها ، وإن الكفر غير مرضىّ للّه سبحانه على كل حال كما هو الظاهر ، أو هى خاصة ؟ والمعنى : لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه كما سيأتى بيانه آخر البحث ، وتابعه على ذلك عكرمة والسدّى وغيرهما . ثم اختلفوا فى الآية اختلافا آخر . فقال قوم : إنه يريد كفر الكافر ولا يرضاه، وقال آخرون: إنه لا يريده ولا يرضاه ، والكلام فى تحقيق مثل هذا يطول جدا . وقد استدل القائلون بتخصيص هذه الآية ، والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه ﴿يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ [النحل: ٩٣]، ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ [الإنسان: ٣٠] ونحو هذا مما يؤدى معناه كثير فى الكتاب العزيز . ثم لما ذكر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر فقال :﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ أى يرضى لكم الشكر المدلول عليه بقوله : ﴿ **وإن تشكروا** ﴾ ويثيبكم عليه، وإنما رضى لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم فى الدنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : ٧]. قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم بإسكان الهاء من : «يرضه»، وأشبع الضمة على الهاء ابن ذكوان وابن كثير والكسائى وابن محيصن وورش عن نافع ، واختلس الباقون . ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم** ﴾ يوم القيامة ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ من خير وشر، وفيه تهديد شديد ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أى بما تضمره القلوب وتستره ، فكيف بما تظهره وتبديه ؟

﴿ **وإذا مسّ الإنسان ضرّ** ﴾ أىّ ضر كان من مرض أو فقر أو خوف ﴿ **دعا ربه منيبا إليه** ﴾ أى راجعا إليه مستغيثا به فى دفع ما نزل به تاركا لما كان يدعوه ، ويستغيث به من ميت أو حىّ أو صنم أو غير ذلك ﴿ **ثم إذا خوّله نعمة منه** ﴾ أى أعطاه وملكه ، يقال : خوّله الشىء ، أى

---

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٥٧٧/ ٥٥) .

ملكه إياه ، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

ومنه قول أبى النجم :

أعطى ولم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّل كُوم الذُّرى من خَوَلِ المخُوَّلِ

﴿ **نسى ما كان يدعو إليه من قبل** ﴾ أى نسى الضرّ الذى كان يدعو اللّه إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله . قيل : نسى الدعاء الذى كان يتضرع به وتركه أو نسى ربه الذى كان يدعوه ويتضرّع إليه ، ثم جاوز ذلك إلى الشرك باللّه ، وهو معنى قوله: ﴿ **وجعل لله أندادا** ﴾ أى شركاء من الأصنام أو غيرها يستغيث بها ويعبدها ﴿ **ليضل عن سبيله** ﴾ أى ليضل الناس عن طريق اللّه التى هى الإسلام والتوحيد . وقال السدّى : يعنى أندادا من الرجال يعتمد عليهم فى جميع أموره . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يهدّد من كان متصفا بتلك الصفة فقال: ﴿ **قل تمتع بكفرك قليلا** ﴾ أى تمتعا قليلا أو زمانا قليلا ، فمتاع الدنيا قليل ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿**إنك من أصحاب النار** ﴾ أى مصيرك إليها عن قريب ، وفيه من التهديد أمر عظيم . قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه التهديد والوعيد ، قرأ الجمهور :﴿ **ليضل** ﴾ بضم الياء ، وقرأ ابن كثير وعمرو بفتحها .

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين وتمسكهم بغير اللّه عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين فقال : ﴿**أمّن هو قانت آناء الليل** ﴾ وهذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول اللّه ﷺ . والمعنى : ذلك الكافر أحسن حالا ومآلا ، أمن هو قائم بطاعات اللّه فى السراء والضراء فى ساعات الليل ، مستمرّ على ذلك ، غير مقتصر على دعاء اللّه سبحانه عند نزول الضرر به . قرأ الحسن وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : ﴿**أمن**﴾ بالتشديد ، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة ويحيى بن وثاب والأعمش بالتخفيف ، فعلى القراءة الأولى أم داخلة على من الموصولة وأدغمت الميم فى الميم، وأم هى المتصلة ومعادلها محذوف تقديره : الكافر خير أم الذى هو قانت ؟ وقيل : هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة ، أى بل أمن هو قانت كالكافر ؟ وأما على القراءة الثانية ، فقيل : الهمزة للاستفهام دخلت على من ، والاستفهام للتقرير ومقابله محذوف ، أى أمن هو قانت كمن كفر ؟ وقال الفراء : إن الهمزة فى هذه القراءة للنداء ومن منادى ، وهى عبارة عن النبىّ ﷺ المأمور بقوله : ﴿ **قل تمتع** ﴾ والتقدير: يا من هو قانت ، قل : كيت وكيت ، وقيل : التقدير: يا من هو قانت ، إنك من أصحاب الجنة . ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفرّاء ، وضعف ذلك أبو حيان ، وقال: هو أجنبى عما قبله وعما بعده ، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علىّ الفارسى ، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم والأخفش ولا وجه لذلك فإنا إذا ثبتت الرواية بطلت الدّراية . وقد اختلف فى تفسير القانت هنا فقيل : المطيع . وقيل : الخاشع فى صلاته . وقيل : القائم فى صلاته . وقيل : الدّاعى لربه . قال النحاس : أصل القنوت : الطاعة، فكل ما قيل

فيه فهو داخل فى الطاعة، والمراد بآناء الليل : ساعاته . وقيل : جوفه . وقيل : ما بين المغرب والعشاء. وانتصاب ﴿ساجدا وقائما ﴾ على الحال ، أى جامعا بين السجود والقيام ، وقدّم السجود على القيام لكونه أدخل فى العبادة ،ومحل ﴿ يحذر الآخرة﴾ النصب على الحال أيضا ، أى يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير ومقاتل ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ فيجمع بين الرجاء والخوف ، وما اجتمعا فى قلب رجل إلا فاز . قيل : وفى الكلام حذف ، والتقدير : كمن لا يفعل شيئا من ذلك كما يدل عليه السياق . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم قولا آخر يتبين به الحقّ من الباطل فقال : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ أى الذين يعلمون أن ما وعد الله به من البعث والثواب والعقاب حقّ ، والذين لا يعلمون ذلك ، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله والذين لا يعلمون ذلك ، أو المراد : العلماء والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل ، ولا بين العالم والجاهل . قال الزجاج: أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى . وقيل: المراد بالذين يعلمون هم : العاملون بعلمهم فإنهم المنتفعون به ؛ لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أى إنما يتعظ ويتدبر ويتفكر أصحاب العقول ، وهم المؤمنون لا الكفار ، فإنهم وإن زعموا أن لهم عقولا فهى كالعدم وهذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به بل من جهة الله سبحانه .

﴿ قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم، وبين أنه ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه والإيمان به . والمعنى: يأيها الذين صدّقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته ، واجتناب معاصيه ، وإخلاص الإيمان له ، ونفى الشركاء عنه . والمراد : قل لهم قولى هذا بعينه . ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما فى هذه التقوى من الفوائد فقال: ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ أي للذين عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة وهى الجنة ، وقوله : ﴿ فى هذه الدنيا ﴾ متعلق بأحسنوا . وقيل : هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها ، فيكون المعنى : للذين أحسنوا فى العمل حسنة فى الدنيا بالصحة والعافية والظفر والغنيمة ، والأوّل أولى . ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات والإحسان فى وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة فقال : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ أى فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله . والعمل بما أمر به . والترك لما نهى عنه ، ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ [النساء : ٩٧] وقد مضى الكلام فى الهجرة مستوفى فى سورة النساء . وقيل : المراد بالأرض هنا : أرض الجنة ، رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها كما فى قوله: ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والأوّل أولى .

ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا ، وكان لا بدّ فى ذلك من الصبر على فعل

الطاعة وعلى كفّ النفس عن الشهوات ، أشار إلى فضيلة الصبر وعظيم مقداره فقال : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ أى يوفيهم الله أجرهم فى مقابلة صبرهم بغير حساب، أى بما لا يقدر على حصره حاصر ، ولا يستطيع حسبانه حاسب . قال عطاء : بما لا يهتدى إليه عقل ولا وصف . وقال مقاتل : أجرهم الجنة ، وأرزاقهم فيها بغير حساب . والحاصل أن الآية تدلّ على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له ، لأن كل شىء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة تقتضى أن على كل راغب فى ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر ويزم نفسه بزمامه ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يردّ قضاء قد نزل، ولا يجلب خيرا قد سلب ولا يدفع مكروها قد وقع ، وإذا تصوّر العاقل هذا حق تصوره وتعقله حقّ تعقله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم ، وظفر بهذا الجزاء الخطير ، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى ، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، فضمّ إلى مصيبته مصيبة أخرى ولم يظفر بغير الجزع ، وما أحسن قول من قال :

أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب ... فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

هناك يحق الصبر والصبر واجب ... وما كان منه للضرورة أوجب

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يخبرهم بما أمر به من التوحيد والإخلاص فقال : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدّين** ﴾ أي أعبده عبادة خالصة من الشرك والرّياء وغير ذلك . قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبىّ ﷺ : ما يحملك على الذى أتيتنا به ، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدّك وسادات قومك يعبدون اللات والعزّى فتأخذ بها ؟ فأنزل الله الآية ، وقد تقدّم بيان معنى الآية فى أوّل هذه السورة ﴿ **وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين** ﴾ أى من هذه الأمة ، وكذلك كان ﷺ ، فإنه أوّل من خالف دين آبائه ودعا إلى التوحيد ، واللام للتعليل ، أى وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون . وقيل : إنها مزيدة للتأكيد ، والأوّل أولى . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم** ﴾ يعنى : الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فيقولون : لا إله إلا الله ، ثم قال : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ وهم عباده المخلصون الذين قال : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء : ٦٥] فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحبها إليهم . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ قال : لا يرضى لعباده المسلمين الكفر . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : والله ما رضى الله لعبد ضلالة ولا أمره بها ولا دعا إليها ، ولكن رضى لكم طاعته وأمركم بها ونهاكم عن معصيته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر عن ابن عمر أنه تلا هذه الآية : ﴿ **أمن هو**

قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ﴾ قال : ذاك عثمان بن عفان [١] . وفي لفظ : نزلت فى عثمان بن عفان . وأخرج ابن سعد فى طبقاته ، وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أمن هو قانت ﴾ الآية قال : نزلت فى عمار بن ياسر[٢] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ يحذر الآخرة ﴾ يقول : يحذر عذاب الآخرة . وأخرج الترمذى والنسائى وابن ماجة عن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ على جل وهو فى الموت فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو ، وأمنه الذى يخاف » [٣] . أخرجوه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس . قال الترمذى : غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت عن النبى ﷺ مرسلا .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾.

قوله : ﴿ قل إنى أخاف إن عصيت ربى ﴾ أى بترك إخلاص العبادة له وتوحيده والدعاء إلى ترك الشرك وتضليل أهله ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وهو يوم القيامة . قال أكثر المفسرين : المعنى : إنى أخاف إن عصيت ربى بإجابة المشركين إلى ما دعونى إليه من عبادة غير الله . قال أبو حمزة اليمانى وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] وفى هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب ، لأن قبله : ﴿ إنى[٤] أمرت أن أعبد الله ﴾ [الزمر : ١١]. فالمراد : عصيان هذا الأمر ﴿ قل الله أعبد ﴾ التقديم مشعر بالاختصاص ، أى لا أعبد غيره لا استقلالا ولا على جهة الشركة ، ومعنى ﴿ مخلصا

(١) أبو نعيم فى الحلية ١/ ٥٦ .
(٢) ابن سعد ٣/ ٢٥٠ .
(٣) الترمذى فى الجنائز (٩٨٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى اليوم والليلة (١٠٩٠١) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٦١).
(٤) فى المخطوطة : « إنما » .

له دينى ﴾ : أنه خالص للّه غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما ، وقد تقدّم تحقيقه فى أول السورة . قال الرازى : فإن قيل : ما معنى التكرير فى قوله : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ [الزمر: ١١] وقوله : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له دينى** ﴾ قلنا : ليس هذا بتكرير؛لأن الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة اللّه بالإيمان والعبادة ، والثانى إخبار بأنه أمر ألا يعبد أحدا غير اللّه ﴿ **فاعبدوا ما شئتم** ﴾ أن تعبدوه ﴿ **من دونه** ﴾ هذا الأمر للتهديد والتقريع والتوبيخ كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : ٤٠] وقيل : إن الأمر على حقيقته ، وهو منسوخ بآية السيف ، والأوّل أولى ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أى إن الكاملين فى الخسران هم هؤلاء ؛ لأن من دخل النار فقد خسر نفسه وأهله . قال الزجاج : وهذا يعنى به الكفار فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد فى النار ، وخسروا أهليهم ، لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل فى الجنة ، وجملة : ﴿ **ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها ، وتصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذى حلّ بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية،وكذلك تعريف الخسران ووصفه بكونه مبينا ، فإنه يدلّ على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران وأنه لا خسران يساويه ولا عقوبة تدانيه .

ثم بين سبحانه هذا الخسران الذى حلّ بهم والبلاء النازل عليهم بقوله : ﴿ **لهم من فوقهم ظلل من النار** ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار ، أى لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم ﴿ **ومن تحتهم ظلل** ﴾ أى أطباق من النار ، وسمى ما تحتهم ظللا ؛ لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار ؛ لأن طبقات النار صار فى كلّ طبقة منها طائفة من طوائف الكفار ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وقوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [العنكبوت : ٥٥] والإشارة بقوله: ﴿**ذلك**﴾ إلى ما تقدّم ذكره من وصف عذابهم فى النار، وهو مبتدأ وخبره قوله:﴿ **يخوّف الله به عباده** ﴾ أى يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب ليخافوه فيتقوه ، وهو معنى : ﴿ **يا عباد فاتقون** ﴾ أى اتقوا هذه المعاصى الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار ، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب فى القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم. وقيل: هو للكفار وأهل المعاصى. وقيل : هو عامّ للمسلمين والكفار .

﴿ **والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها** ﴾ الموصول مبتدأ وخبره قوله : ﴿ **لهم البشرى** ﴾ والطاغوت بناء مبالغة فى المصدر كالرحموت والعظموت ، وهو الأوثان والشيطان . وقال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان . وقال الضحاك والسدّى : هو الأوثان . وقيل : إنه الكاهن . وقيل : هو اسم أعجمى مثل طالوت وجالوت . وقيل: إنه اسم عربى مشتق من الطغيان . قال الأخفش: الطاغوت جمع ، ويجوز أن يكون واحده مؤنثا ، ومعنى اجتنبوا الطاغوت : أعرضوا عن عبادته وخصوا عبادتهم بالله عز وجل ، وقوله : ﴿ **أن يعبدوها** ﴾ فى محل نصب على البدل من الطاغوت بدل اشتمال ، كأنه قال : اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وقد تقدم الكلام

على تفسير الطاغوت مستوفى فى سورة البقرة . وقوله : ﴿ **وأنابوا إلى الله** ﴾ معطوف على اجتنبوا ، والمعنى : رجعوا إليه وأقبلوا على عبادته معرضين عما سواه ﴿ **لهم البشرى** ﴾ بالثواب الجزيل وهو الجنة ، وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل ، أو عند حضور الموت أو عند البعث ﴿ **فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ المراد بالعباد هنا : العموم ، فيدخل الموصوفون بالاجتناب والإنابة إليه دخولا أوّليا ، والمعنى : يستمعون القول الحق من كتاب الله وسنة رسوله فيتبعون أحسنه ، أى محكمه ، ويعملون به . قال السدّى : يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه . وقيل : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به . وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون الرخص والعزائم ، فيتبعون العزائم ويتركون الرخص . وقيل : يأخذون بالعفو ويتركون العقوبة . ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المذكورين فقال : ﴿ **أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب** ﴾ أى هم الذين أوصلهم الله إلى الحق وهم أصحاب العقول الصحيحة ، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ولم ينتفع من عداهم بعقولهم .

ثم ذكر سبحانه من سبقت له الشقاوة وحرم السعادة فقال: ﴿ **أفمن حقّ عليه كلمة العذاب** ﴾ من هذه يحتمل أن تكون موصولة فى محل رفع بالابتداء وخبرها محذوف ، أى كمن يخاف ، أو فأنت تخلصه أو تتأسف عليه ، ويحتمل أن تكون شرطية ، وجوابه : ﴿ **أفأنت تنقذ من فى النار** ﴾ فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء ، وأعيدت الهمزة الإنكارية لتأكيد معنى الإنكار . وقال سيبويه : إنه كرّر الاستفهام لطول الكلام . وقال الفراء : المعنى : أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ، والمراد بكلمة العذاب هنا : هى قوله تعالى لإبليس : ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : ٨٥] ، وقوله : ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ [الأعراف : ١٨] ومعنى الآية : التسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنه كان حريصا على إيمان قومه ، فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله ﷺ أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمنا . قال عطاء : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبىّ ﷺ عن الإيمان، وفى الآية تنزيل لمن يستحق العذاب بمن قد صار فيه ، وتنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار .

ولما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظللا من فوقهم النار ومن تحتهم ظلل ، استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال : ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية** ﴾ وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض، ومعنى ﴿ **مبنية** ﴾ : أنها مبنية بناء المنازل فى إحكام أساسها وقوّة بنائها وإن كانت منازل الدنيا ليست بشىء بالنسبة إليها ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى من تحت تلك الغرف ، وفى ذلك كمال لبهجتها وزيادة لرونقها . وانتصاب ﴿ **وعد الله** ﴾ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة ؛ لأن قوله : ﴿ **لهم غرف** ﴾ فى معنى وعدهم الله بذلك ، وجملة : ﴿ **لا يخلف الله الميعاد** ﴾ مقرّرة للوعد ، أى لا يخلف الله

ما وعد به الفريقين من الخير والشرّ .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ﴾ الآية . قال : هم الكفار الذين خلقهم الله للنار زالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ قال : أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدّوا لهم لو عملوا بطاعة الله فغبنوهم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: كان سعيد بن زيد وأبو ذر وسلمان يتبعون فى الجاهلية أحسن القول وأحسن القول والكلام : لا إله إلا الله ، قالوا بها ، فأنزل الله على نبيه : ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال :لما نزلت : ﴿ فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أرسل رسول الله ﷺ مناديا فنادى:من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، فاستقبل عمر الرسول فرده فقال : يا رسول الله ، خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون ، فقال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس قدر رحمة ربى لاتكلوا ، ولو يعلمون قدر سخط ربى وعقابه لاستصغروا أعمالهم » وهذا الحديث أصله فى الصحيح من حديث أبى هريرة (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾.

لما ذكر سبحانه الآخرة ، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها ، والشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا ، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها والنفرة منها ، فذكر تمثيلا لها فى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، مع ما فى ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة وصنعه البديع فقال : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ أى من السحاب مطرا ﴿ فسلكه ينابيع فى الأرض ﴾ أى فأدخله وأسكنه فيها ، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع ، والينبوع عين الماء والأمكنة التى ينبع منها الماء ، والمعنى : أدخل الماء النازل من السماء فى الأرض وجعله فيها عيونا جارية، أو

(١) مسلم فى الإيمان (٣١/ ٥٢).

جعله فى ينابيع ، أى فى أمكنة ينبع منها الماء ، فهو على الوجه الثانى منصوب بنزع الخافض. قال مقاتل : فجعله عيونا وركايا فى الأرض ﴿ **ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه** ﴾ أى يخرج بذلك الماء من الأرض زرعا مختلفا ألوانه من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر ، أو من بر وشعير وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ﴿ **ثم يهيج** ﴾ يقال : هاج النبت يهيج هيجا : إذا تم جفافه . قال الجوهرى : يقال : هاج النبت هياجا : إذا يبس ، وأرض هائجة يبس بقلها أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت : أيبسته . قال المبرد : قال الأصمعى : يقال : هاجت الأرض تهيج : إذا أدبر نبتها وولى . قال : وكذلك هاج النبت . ﴿ **فتراه مصفرا** ﴾ أى تراه بعد خضرته ونضارته وحسن رونقه مصفرا قد ذهبت خضرته ونضارته ﴿ **ثم يجعله حطاما** ﴾ أى متفتتا منكسرا ، من تحطم العود : إذا تفتت من اليبس ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ أى فيما تقدم ذكره تذكيرا لأهل العقول الصحيحة ، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها فيتفكرون ويعتبرون ، ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع فى سرعة التصرم وقرب التقضى ، وذهاب بهجتها وزوال رونقها ونضارتها ، فإذا أنتج لهم التفكر والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها ، والميل إليها وإيثارها على دار النعيم الدائم ، والحياة المستمرة واللذة الخالصة ، ولم يبق معهم شك فى أن الله قادر على البعث والحشر ؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك . وقيل: هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من فى الأرض . والمعنى : أنزل من السماء قرآنا فسلكه فى قلوب المؤمنين ، ثم يخرج به دينا بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيمانا ويقينا ، وأما الذى فى قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع ، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير . قرأ الجمهور : ﴿ **ثم يجعله** ﴾ بالرفع عطفا على ما قبله، وقرأ أبو بشر بالنصب بإضمار أن ، ولا وجه لذلك .

ثم لما ذكر سبحانه أن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ، ذكر شرح الصدر للإسلام ؛ لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به فقال : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام** ﴾ أى وسعه لقبول الحق وفتحه للاهتداء إلى سبيل الخير. قال السدى : وسع صدره للإسلام للفرح به والطمأنينة إليه ، والكلام فى الهمزة والفاء كما تقدم فى : ﴿ **أفمن حقّ عليه كلمة العذاب** ﴾ ومن مبتدأ وخبرها محذوف تقديره : كمن قسا قلبه وحرج صدره ، ودل على هذا الخبر المحذوف قوله : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم** ﴾ والمعنى : أفمن وسع الله صدره للإسلام فقبله واهتدى بهديه ﴿**فهو**﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿ **على نور من ربه** ﴾ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره ، فصار فى ظلمات الضلالة وبليات الجهالة . قال قتادة : النور : كتاب الله به يؤخذ وإليه ينتهى . قال الزجاج : تقدير الآية : أفمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته؟ ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ قال الفراء والزجاج : أى عن ذكر الله كما تقول : أنخمت عن طعام أكلته ومن طعام أكلته، والمعنى : أنه غلظ قلبه وجفا عن قبول ذكر الله ، يقال : قسا القلب: إذا صلب ، وقلب قاس ،أى صلب لا يرق ولا يلين. وقيل: معنى ﴿ **من ذكر الله** ﴾ :

من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب ، والمعنى : أنه إذا ذكر الله اشمأزوا ، والأول أولى ، ويؤيده قراءة من قرأ « عن ذكر الله » ، والإشارة بقوله : ﴿أولئك﴾ إلى القاسية قلوبهم، وهو مبتدأ وخبره ﴿ فى ضلال مبين ﴾ أى ظاهر واضح .

ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز فقال : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يعنى القرآن ، وسماه حديثا لأن النبى ﷺ كان يحدث به قومه ويخبرهم بما ينزل عليه منه ، وفيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقا هو القرآن . وانتصاب ﴿ كتابا ﴾ على البدل من أحسن الحديث ، ويحتمل أن يكون حالا منه ﴿ متشابها ﴾ صفة لـ﴿ كتابا ﴾ ، أى يشبه بعضه بعضا فى الحسن والإحكام وصحة المعانى وقوة المبانى،وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة. وقال قتادة : يشبه بعضه بعضا فى الآى والحروف . وقيل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، و﴿مثانى﴾ صفة أخرى لـ﴿ كتابا ﴾ ، أى تثنى فيه القصص وتتكرر فيه المواعظ والأحكام . وقيل : يثنى فى التلاوة فلا يمل سامعه ولا يسأم قارئه . قرأ الجمهور : ﴿ مثانى ﴾ بفتح الياء ، وقرأ هشام عن ابن عامر وبشر بسكونها تخفيفا واستثقالا لتحريكها ، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هو مثانى . وقال الرازى فى تبيين مثانى :كأن أكثر الأشياء المذكورة فى القرآن متكررة زوجين زوجين مثل الأمر والنهى والعام والخاص والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض والجنة والنار ، والنور والظلمة واللوح والقلم والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسى والوعد والوعيد والرجاء والخوف ، والمقصود من ذلك : البيان بأن كل ما سوى الحق زوج، وأن الفرد الأحد الحق هو الله . ولا يخفى ما فى كلامه هذا من التكلف والبعد عن مقصود التنزيل ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة لـ ﴿ كتابا ﴾ ، وأن تكون حالا منه ، لأنه وإن كان نكرة فقد تخصص بالصفة، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه . والاقشعرار : التقبض ، يقال : اقشعر جلده : إذا تقبض وتجمع من الخوف . والمعنى : أنها تأخذهم منه قشعريرة . قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم ﴾ إذا ذكرت آيات الرحمة . قال الواحدى : وهذا قول جميع المفسرين ، ومن ذلك قول امرئ القيس :

فبت أكابد ليل التما م والقلب من خشية مقشعر

وقيل : المعنى : أن القرآن لما كان فى غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاما له وتعجبا من حسنه وبلاغته ثم تلين جلودهم وقلوبهم ﴿إلى ذكر الله ﴾ عدى تلين بإلى لتضمينه فعلا يتعدى بها، كأنه قيل : سكنت واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة ، ومفعول ذكر الله محذوف ، والتقدير : إلى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته ، وحذف للعلم به . قال قتادة : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتبكى عيونهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا فى أهل البدع وهو من الشيطان ، والإشارة بقوله : ﴿ذلك﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك

الصفات ،وهو مبتدأ و﴿ هدى الله ﴾ خبره،أى ذلك الكتاب هدى اللّه ﴿ يهدى به من يشاء ﴾ أن يهديه من عباده . وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما وهبه اللّه لهؤلاء من خشية عذابه ورجاء ثوابه ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أى يجعل قلبه قاسيا مظلماً غير قابل للحق ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى الحق ويخلصه من الضلال. قرأ الجمهور : ﴿ من هاد ﴾ بغير ياء . وقرأ ابن كثير وابن محيصن بالياء .

ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وهو الضلال ، حكم عليهم فى الآخرة بحكم آخر وهو العذاب فقال: ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾ والاستفهام للإنكار ، وقد تقدم الكلام فيه وفى هذه الفاء الداخلة على من فى قوله : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ ومن مبتدأ وخبرها محذوف لدلالة المقام عليه ، والمعنى: أفمن شأنه أن يقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة ؛ لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن، لا يعتريه شىء من ذلك ولا يحتاج إلى الاتقاء ؟ قال الزجاج : المعنى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة؟ قال عطاء وابن زيد : يرمى به مكتوفا فى النار ، فأول شىء تمس منه النار وجهه . وقال مجاهد : يجر على وجهه فى النار . قال الأخفش : المعنى: أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب أفضل أم من سعد ؟ مثل قوله : ﴿ أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ﴾ [فصلت : ٤٠] ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار فقال : ﴿ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ وهو معطوف على يتقى ، أى ويقال لهم ، وجاء بصيغة الماضى ؛ للدلالة على التحقيق . قال عطاء : أى جزاء ما كنتم تعملون ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ [التوبة : ٣٥] وقد تقدم الكلام على معنى الذوق فى غير موضع .

ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار ، فقال : ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أى من قبل الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ والمعنى : أنهم كذبوا رسلهم ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أى من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها وذلك عند أمنهم وغفلتهم عن عقوبة اللّه لهم بتكذيبهم ﴿ فأذاقهم الله الخزى ﴾ أى الذلّ والهوان ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ بالمسخ والخسف والقتل والأسر وغير ذلك ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ لكونه فى غاية الشدة مع دوامه ﴿لو كانوا يعلمون ﴾ أى لو كانوا ممن يعلم الأشياء ويتفكر فيها ويعمل بمقتضى علمه . قال المبرد : يقال : لكل ما نال الجارحة من شىء قد ذاقته ، أى وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال : والخزى : المكروه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ الآية . قال : ما فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق فى الأرض تغيره ، فذلك قوله : ﴿ فسلكه ينابيع فى الأرض ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله :﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ قال : أبو بكر الصديق. وأخرج ابن

مردويه عن ابن مسعود قال : تلا النبىّ ﷺ هذه الآية : ﴿ **أفمن شرح الله صدره** ﴾ قلنا : يا نبى اللّه، كيف انشراح صدره : قال : « إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح » . قلنا : فما علامة ذلك يا رسول اللّه؟ فقال: «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت » (١) . وأخرجه ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظى مرفوعا مرسلا . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عمر ؛ أن رجلا قال: يا نبى اللّه ، أى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم ذكراً للموت ، وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع» ، فقالوا: ما آية ذلك يا نبى اللّه ؟ قال: « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » . وأخرجه عن أبى جعفر عبد اللّه بن المسور عن رسول اللّه ﷺ بنحوه، وزاد فيه . ثم قرأ : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ (٢) . وأخرج الترمذى وابن مردويه وابن شاهين فى الترغيب فى الذكر، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر اللّه قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من اللّه القلب القاسى» (٣) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول اللّه ، لو حدثتنا ، فنزل :﴿ **الله نزل أحسن الحديث** ﴾ الآية(٤) . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **مثانى** ﴾ قال : القرآن كله مثانى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : القرآن يشبه بعضه بعضا ويرد بعضه إلى بعض . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : كتاب اللّه مثانى ثنى فيه الأمر مرارا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن عبد اللّه بن عروة بن الزبير قال : قلت لجدّتى أسماء : كيف كان يصنع أصحاب رسول اللّه ﷺ إذا قرؤوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم اللّه تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم ، قلت : فإن ناسا هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت : أعوذ باللّه من الشيطان . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب** ﴾ قال : ينطلق به إلى النار مكتوفا ثم يرمى به فيها ، فأوّل ما تمس وجهه النار.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ

(١ ، ٢) ابن جرير ٨ / ٢١ .

(٣) الترمذى فى الزهد (٢٤١١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والبيهقى فى الشعب (٤٦٠٠) وأخرجه الديلمى (٧٤٧٥) .

(٤) ابن جرير ٢٣/ ١٣٥ .

جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين (٣٢) والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون (٣٣) لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (٣٤) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون (٣٥) ﴾.

قوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ قد قدمنا تحقيق المثل وكيفية ضربه فى غير موضع، ومعنى ﴿ من كل مثل ﴾ : ما يحتاجون إليه ، وليس المراد ما هو أعمّ من ذلك ، فهو هنا كما فى قوله : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ [الأنعام : ٣٨] أى من شىء يحتاجون إليه فى أمر دينهم . وقيل : المعنى : ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يتعظون فيعتبرون . وانتصاب ﴿ قرآنا عربيا ﴾ على الحال من هذا وهى حال مؤكدة، وتسمى هذه حالا موطئة لأن الحال فى الحقيقة هو عربيا ، وقرآنا توطئة له ، نحو جاءنى زيد رجلا صالحا. كذا قال الأخفش ، ويجوز أن ينتصب على المدح. قال الزجاج: ﴿ عربيا ﴾ منتصب على الحال و﴿ قرآنا ﴾ توكيد ، ومعنى ﴿ غير ذى عوج ﴾: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه . قال الضحاك : أى غير مختلف . قال النحاس : أحسن ما قيل فى معناه قول الضحاك ، وقيل : غير متضاد . وقيل : غير ذى لبس . وقيل : غير ذى لحن . وقيل : غير ذى شك كما قال الشاعر :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج ... من الإله وقول غير مكذوب

﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى بعد العلة الأولى . وهى : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أى لكى يتقوا الكفر والكذب . ثم ذكر سبحانه مثلا من الأمثال القرآنية للتذكير والإيقاظ ، فقال : ﴿ضرب الله مثلا ﴾ أى تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها . ثم بين المثل فقال : ﴿ رجلا فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال الكسائى : نصب ﴿ رجلا ﴾ لأنه تفسير للمثل . وقيل : هو منصوب بنزع الخافض ، أى ضرب الله مثلا برجل . وقيل : إن ﴿ رجلا ﴾ هو المفعول الأوّل ، و﴿مثلا ﴾ هو المفعول الثانى ، وأخر المفعول الأوّل ليتصل بما هو من تمامه ، وقد تقدم تحقيق هذا فى سورة « يس » ، وجملة : ﴿ فيه شركاء ﴾ فى محل نصب صفة لرجل . والتشاكس : التخالف . قال الفراء : أى مختلفون . وقال المبرد : أى متعاسرون ، من شكس يشكس شكسا فهو شكس ، مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر . قال الجوهرى : التشاكس : الاختلاف . قال : ويقال : رجل شكس بالتسكين ، أى صعب الخلق ، وهذا مثل من أشرك بالله وعبد آلهة كثيرة . ثم قال : ﴿ ورجلا سلما لرجل ﴾ أى خالصا له ، وهذا مثل من يعبد الله وحده . قرأ الجمهور : ﴿ سلما ﴾ بفتح السين واللام ، وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية بكسر السين وسكون اللام . وقرأ ابن عباس ومجاهد والجحدرى وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب : «سالما » بالألف وكسر اللام اسم فاعل من سلم له فهو سالم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأن السالم الخالص ضدّ المشترك . والسلم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هاهنا .

وأجيب عنه : بأن الحذف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فالسلم وإن كان ضدّ الحرب فله معنى آخر بمعنى سالم ، من سلم له كذا : إذا خلص له . وأيضا يلزمه فى سالم ما ألزم به ، لأنه يقال : شىء سالم ، أى لا عاهة به ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى. والحاصل أن قراءة الجمهور هى على الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف ، أى ذا سلم ، ومثلها قراءة سعيد بن جبير ومن معه .

ثم جاء سبحانه بما يدلّ على التفاوت بين الرجلين فقال :﴿ **هل يستويان مثلا** ﴾ وهذا الاستفهام للإنكار والاستبعاد، والمعنى : هل يستوى هذا الذى يخدم جماعة شركاء ، أخلاقهم مختلفة ونياتهم متباينة ، يستخدمه كل واحد منهم ، فيتعب وينصب مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته ، وهذا الذى يخدم واحدا لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضى عنه ، وإذا عصاه عفا عنه ؟ فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما ؛ لأن أحدهما فى أعلى المنازل والآخر فى أدناها ، وانتصاب ﴿ **مثلا** ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوى مثلهما . وأفرد التمييز ولم يثنه لأن الأصل فى التمييز الإفراد لكونه مبينا للجنس ، وجملة : ﴿ **الحمد لله** ﴾ تقرير لما قبلها من نفى الاستواء، وللإيذان للموحدين بما فى توحيدهم للّه من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به . ثم أضرب سبحانه عن نفى الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكارى ، إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ وهم المشركون فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره ووضوحه . قال الواحدى والبغوى : والمراد بالأكثر : الكلّ والظاهر خلاف ما قالاه ، فإن المؤمنين باللّه يعلمون ما فى التوحيد من رفعة شأنه وعلوّ مكانه ، وإن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه ، ولا يساويه فى وصف من الأوصاف ، ويعلمون أن اللّه سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة وأن الحمد مختصّ به .

ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بأن الموت يدركه ويدركهم لا محالة فقال :﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **ميت** ﴾ و ﴿ **ميتون** ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن وابن أبى عبلة وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق واليمانى : «مائت» و « مائتون » وبها قرأ عبد اللّه بن الزبير. وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته وموتهم مستقبلا، ولا وجه للاستحسان ، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى . قال الفراء والكسائى : الميت بالتشديد : من لم يمت وسيموت ، والميْت بالتخفيف : من قد مات وفارقته الرّوح . قال قتادة : نعيت إلى النبىّ ﷺ نفسه ونعيت إليهم أنفسهم . ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت ، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة وتمهيدا لما بعده حيث قال : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ أى تخاصمهم يا محمد وتحتجّ عليهم بأنك قد بلغتهم وأنذرتهم وهم يخاصمونك ، أو يخاصم المؤمن الكافر والظالم المظلوم .

ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين فقال : ﴿ **فمن أظلم ممن كذب على الله** ﴾

أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فزعم أن له ولدا أو شريكا أو صاحبة ﴿ **وكذب بالصدق إذ جاءه** ﴾ وهو ما جاء به رسول الله ﷺ من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ونهيهم عن محرماته وإخبارهم بالبعث والنشور، وما أعدّ الله للمطيع والعاصى . ثم استفهم سبحانه استفهاما تقريريا فقال : ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للكافرين** ﴾ أى أليس لهؤلاء المفترين المكذبين بالصدق . والمثوى : المقام . وهو مشتق من ثوى بالمكان : إذا أقام به يثوى ثواء وثويا ، مثل مضى مضاء ومضيا . وحكى أبو عبيد أنه يقال أثوى وأنشد قول الأعشى :

أثوى وقَصَّر ليله ليزودا ومضى وأخلف من قُتَيْلَةَ موعدا

وأنكر ذلك الأصمعى وقال :لا نعرف أثوى . ثم ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصدّقين فقال : ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدّق به** ﴾ الموصول فى موضع رفع بالابتداء ، وهو عبارة عن رسول الله ﷺ ومن تابعه وخبره : ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ وقيل : الذي جاء بالصدق : رسول الله ﷺ ، والذى صدّق به : أبو بكر . وقال مجاهد: الذى جاء بالصدق : رسول الله ﷺ ، والذى صدّق به : على بن أبى طالب . وقال السدّى : الذى جاء بالصدق : جبريل ، والذى صدّق به : رسول الله ﷺ . وقال قتادة ومقاتل وابن زيد : الذى جاء بالصدق : النبى ﷺ ، والذى صدّق به : المؤمنون . وقال النخعى : الذى جاء بالصدق وصدّق به : هم المؤمنون الذين يجيؤون بالقرآن يوم القيامة . وقيل : إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده ، واختار هذا ابن جرير وهو الذى أختاره من هذه الأقوال ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : « والذين جاؤوا بالصدق وصدّقوا به » . ولفظ ﴿ **الذى** ﴾ كما وقع فى قراءة الجمهور وإن كان مفردا فمعناه الجمع ، لأنه يراد به الجنس كما يفيده قوله : ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ أى المتصفون بالتقوى التى هى عنوان النجاة . وقرأ أبو صالح : « وصدق به » مخففا أى صدق به الناس .

ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدّقين فى الآخرة فقال : ﴿ **لهم ما يشاؤون عند ربهم** ﴾ أى لهم كل ما يشاؤونه من رفع الدرجات ودفع المضرات وتكفير السيئات ، وفى هذا ترغيب عظيم وتشويق بالغ ، والإشارة بقوله : ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره من جزائهم وهو مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ **جزاء المحسنين** ﴾ أى الذين أحسنوا فى أعمالهم. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [1] . ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم فقال : ﴿ **ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا** ﴾ فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى ، واللام متعلقة بـ﴿ **يشاؤون** ﴾ أو بالمحسنين أو

---

(١) سبق تخريجه .

بمحذوف . قرأ الجمهور : ﴿ أسوأ ﴾ على أنه أفعل تفضيل . وقيل : ليست للتفضيل بل بمعنى سيء الذى عملوا . وقرأ ابن كثير فى رواية عنه : « أسواء » بألف بين الهمزة والواو بزنة أجمال جمع سوء . ﴿ **ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ لما ذكر سبحانه ما يدلّ على دفع المضارّ عنهم ذكر ما يدلّ على جلب أعظم المنافع إليهم وإضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه ، بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصدا إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل . قال مقاتل : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى .

وقد أخرج الآجرّى والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **غير ذى عوج** ﴾ قال : غير مخلوق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا** ﴾ الآية قال : الرجل يعبد آلهة شتى ، فهذا مثل ضربه الله لأهل الأوثان «ورجلا سالما » يعبد إلها واحدا ضرب لنفسه مثلا . وأخرجا عنه أيضا فى قوله: « ورجلا سالما » قال : ليس لأحد فيه شيء . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ، ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين من قبلنا : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ الآية، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا [(١)] . وأخرج نعيم بن حماد فى الفتن ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عنه أيضا قال : نزلت علينا الآية : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ وما ندرى ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة ، فقلنا: هذا الذى وعدنا ربنا أن نختصم فيه[(٣)] . وأخرج عبد الرزاق وأحمد وابن منيع وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى البعث والنشور عن الزبير بن العوام قال : لما نزلت : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قلت : يا رسول الله ، أيكرر علينا ما يكون بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : « نعم ، ليكررن عليكم ذلك حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه » قال الزبير : فوالله إن الأمر لشديد [(٤)] . وأخرج سعيد بن منصور عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ كنا نقول : ربنا واحد ودِيننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات

---

(١) النسائى فى التفسير (٤٦٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٣ : « رواه الطبرانى ورجاله ثقات » .
(٢) صححه الحاكم ٤/ ٥٧٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٣) ابن جرير ٢٤/ ٣ .
(٤) أحمد ١/ ١٦٧ والترمذى فى التفسير (٣٢٣٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وصححه الحاكم ٤/ ٥٧٢ وسكت عنه الذهبى وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٩١ .

عن ابن عباس فى قوله: ﴿والذى جاء بالصدق﴾ يعنى : بلا إله إلا الله ﴿ وصدّق به ﴾ يعنى برسول الله ﷺ ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ يعنى : اتقوا الشرك . وأخرج ابن جرير ، والباوردى فى معرفة الصحابة ، وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان ، وله صحبة عن علىّ ابن أبى طالب قال : الذى جاء بالصدق : محمد ﷺ ، وصدق به أبو بكر . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مثله .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾.

قوله : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ عبده ﴾ بالإفراد . وقرأ حمزة والكسائى : « عباده » بالجمع ، فعلى القراءة الأولى المراد : النبى ﷺ أو الجنس ، ويدخل فيه رسول الله ﷺ دخولا أوليا ، وعلى القراءة الأخرى المراد الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع واختار أبو عبيد قراءة الجمهور لقوله عقبه : ﴿ ويخوّفونك ﴾ والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره . وقيل : المراد بالعبد والعباد: ما يعمّ المسلم والكافر. قال الجرجانى : إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب ، وقرئ :« بكافى عباده » بالإضافة ، وقرئ : « يكافى » بصيغة المضارع ، وقوله : ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه﴾ يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال ، إذ المعنى: أليس كافيك حال تخويفهم إياك ؟ ويجوز أن تكون مستأنفة . والذين من دونه عبارة عن المعبودات التى يعبدونها ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أى من حق عليه القضاء بضلاله فما له من هاد يهديه إلى الرشد ويخرجه من الضلالة . ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ يخرجه من الهداية ويوقعه فى الضلالة ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ أى غالب لكل شىء قاهر له ﴿ ذى انتقام﴾ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه وما ينزله بهم من سوط عقابه .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ذكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا

عن الخالق بأنه الله سبحانه مع عبادتهم للأوثان ، واتخاذهم الآلهة من دون الله ، وفى هذا أعظم دليل على أنهم كانوا فى غفلة شديدة وجهالة عظيمة لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل وتشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة ؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الإدراك والفطنة التامة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف ويوبخهم فقال: ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره** ﴾ أى أخبرونى عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده الله بى من الضرّ ؟ والضرّ : هو الشدّة أو أعلى ﴿ **أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته** ﴾ عنى بحيث لا تصل إلىّ . والرحمة : النعمة والرخاء . قرأ الجمهور: ﴿ **ممسكات** ﴾ و﴿ **كاشفات** ﴾ فى الموضعين بالإضافة وقرأهما أبو عمرو بالتنوين . قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية سألهم النبىّ ﷺ فسكتوا ، وقال غيره : قالوا : لا تدفع شيئا من قدر الله ولكنها تشفع ، فنزل: ﴿ **قل حسبى الله** ﴾ فى جميع أمورى فى جلب النفع ودفع الضرّ ﴿ **عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ أى عليه لا على غيره يعتمد المعتمدون ، واختار أبوعبيد وأبو حاتم قراءة أبى عمرو ؛ لأن كاشفات اسم فاعل فى معنى الاستقبال ، وما كان كذلك فتنوينه أجود ، وبها قرأ الحسن وعاصم .

ثم أمره سبحانه أن يهدّدهم ويتوعدهم فقال : ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ أى على حالتكم التى أنتم عليها وتمكنتم منها ﴿ **إنى عامل** ﴾ أى على حالتى التى أنا عليها وتمكنت منها ، وحذف ذلك للعلم به مما قبله ﴿**فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ أى يهينه ويذله فى الدنيا ، فيظهر عند ذلك أنه المبطل وخصمه المحق ، والمراد بهذا العذاب :عذاب الدنيا وما حلّ بهم من القتل والأسر والقهر والذلة . ثم ذكر عذاب الآخرة فقال: ﴿ **ويحلّ عليه عذاب مقيم** ﴾ أى دائم مستمر فى الدار الآخرة وهو عذاب النار . ثم لما كان يعظم على رسول الله ﷺ إصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان ،لا بأن يهدى من ضلّ ، فقال : ﴿**إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس** ﴾ أي لأجلهم ولبيان ما كلفوا به ، ﴿**بالحق**﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أى محقين أو ملتبسا بالحق ﴿ **فمن اهتدى** ﴾ طريق الحق وسلكها ﴿ **فلنفسه ومن ضل** ﴾ عنها ﴿ **فإنما يضل عليها** ﴾ أى على نفسه ، فضر ذلك عليه لا يتعدّى إلى غيره ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى بمكلف بهدايتهم مخاطب بها ،بل ليس عليك إلا البلاغ وقد فعلت . وهذه الآيات هى منسوخة بآية السيف ، فقد أمر الله رسوله بعد هذا أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا بأحكام الإسلام .

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته البالغة وصنعته العجيبة فقال : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ أى يقبضها عند حضور أجلها ويخرجها من الأبدان ﴿ **والتى لم تمت فى منامها** ﴾ أى ويتوفى الأنفس التى لم تمت، أى لم يحضر أجلها فى منامها. وقد اختلف فى هذا، فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح فى الجسد . وقال الفراء : المعنى : ويقبض التى لم تمت

عند انقضاء أجلها قال : وقد يكون توفيها نومها ، فيكون التقدير على هذا : والتى لم تمت وفاتها نومها . قال الزجاج : لكل إنسان نفسان : إحداهما : نفس التمييز وهى التى تفارقه إذا نام فلا يعقل ، والأخرى : نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس . قال القشيرى : فى هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة فى الحالتين شىء واحد ، ولهذا قال : ﴿ **فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى** ﴾ أى النائمة ﴿ **إلى أجل مسمى**﴾ وهو الوقت المضروب لموته ، وقد قال بمثل قول الزجاج ابن الأنبارى . وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿ **فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى**﴾ فيعيدها ، والأولى أن يقال : إن توفى الأنفس حال النوم بإزالة الإحساس وحصول الآفة به فى محل الحس ، فيمسك التى قضى عليها الموت ولا يردّها إلى الجسد الذى كانت فيه ، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها . قيل: ومعنى ﴿ **يتوفى الأنفس عند موتها** ﴾ : هو على حذف مضاف ، أى عند موت أجسادها .

وقد اختلف العقلاء فى النفس والروح هل هما شىء واحد أو شيئان ؟ والكلام فى ذلك يطول جداً وهو معروف فى الكتب الموضوعة لهذا الشأن . قرأ الجمهور : ﴿ **قضى** ﴾ مبنيا للفاعل ، أى قضى الله عليها الموت، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب على البناء للمفعول ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لموافقتها لقوله : ﴿ **الله يتوفى الأنفس** ﴾ والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم من التوفى والإمساك والإرسال للنفوس ﴿ **لآيات** ﴾ أى لآيات عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة ، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهمه كل أحد بل ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ فى ذلك ويتدبرونه ويستدلون به على توحيد الله وكمال قدرته ، فإن فى هذا التوفى والإمساك والإرسال موعظة للمتعظين وتذكرة للمتذكرين .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ الآية . قال: نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فيتوفى الله النفس فى منامه ويدع الروح فى جوفه تتقلب وتعيش ، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح فمات ، وإن أخر أجله ردّ النفس إلى مكانها من جوفه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه فى الآية قال : تلتقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات فى المنام فيتساءلون بينهم ماشاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ لا يغلط بشىء منها فذلك قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا فى الآية قال : كل نفس لها سبب تجرى فيه ، فإذا قضى عليها الموت نامت حتى ينقطع السبب ، والتى لم تمت فى منامها تترك . وأخرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن

أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » (١) .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) ﴾.

قوله : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ﴾ أم هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة ، أى بل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله ﴿قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على محذوف مقدّر، أى أيشفعون ولو كانوا . . . إلخ ، وجواب لو محذوف تقديره : تتخذونهم ، أى وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم ، ومعنى ﴿ لا يملكون شيئا ﴾ : أنهم غير مالكين لشىء من الأشياء وتدخل الشفاعة فى ذلك دخولا أوليا ولا يعقلون شيئا من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها ، وجمعهم بالواو والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون . ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده فقال : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ فليس لأحد منها شىء إلا أن يكون بإذنه لمن ارتضى ، كما فى قوله: ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وانتصاب ﴿ جميعا ﴾ على الحال ، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعدا ؛ لأنها مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ثم وصفه بسعة الملك فقال : ﴿ له ملك السموات والأرض﴾ أى يملكهما ويملك ما فيهما ويتصرف فى ذلك كيف يشاء ويفعل ما يريد ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ لا إلى غيره، وذلك بعد البعث .

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ انتصاب ﴿ وحده ﴾ على الحال عند يونس، وعلى المصدر عند الخليل وسيبويه ، والاشمئزاز فى اللغة : النفور. قال أبو عبيدة : اشمأزت : نفرت ، وقال المبرد : انقبضت . وبالأول قال قتادة ، وبالثانى قال مجاهد والمعنى متقارب . وقال المؤرج : أنكرت ، وقال أبو زيد : اشمأز الرجل : ذعر من الفزع ، والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت ، وهو فى الأصل : الازورار ، وكان المشركون إذا قيل لهم لا إله إلا الله انقبضوا ، كما حكاه الله عنهم فى قوله : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ [الإسراء : ٤٦] ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم

(١) أحمد ٢/ ٢٩٥ والبخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) ومسلم فى الذكر (٢٧١٤/ ٦٤) .

فقال: ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ أى يفرحون بذلك ويبتهجون به، والعامل فى « إذا » فى قوله : ﴿ وإذا ذكر الله ﴾ الفعل الذى بعدها ، وهو اشمأزت ، والعامل فى « إذا » فى قوله: ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ الفعل العام فى إذا الفجائية، والتقدير: فاجؤوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه. ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به ﷺ من الدعاء إلى الخير وصمموا على كفرهم ، أمره الله سبحانه أن يردّ الأمر إليه فقال: ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ وقد تقدّم تفسير فاطر السموات، وتفسير عالم الغيب والشهادة، وهما منصوبان على النداء، ومعنى ﴿ تحكم بين عبادك ﴾: تجازى المحسن بإحسانه وتعاقب المسىء بإساءته ، فإنه بذلك يظهر من هو المحقّ ومن هو المبطل، ويرتفع عنده خلاف المختلفين وتخاصم المتخاصمين .

ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر الله والاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدلّ على شدّة عذابهم وعظيم عقوبتهم فقال: ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ﴾ أى جميع ما فى الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ ومثله معه ﴾ أى منضما إليه ﴿ لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أى من سوء عذاب ذلك اليوم وقد مضى هذا فى آل عمران . ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ أى ظهر لهم من عقوبات الله وسخطه وشدّة عذابه ما لم يكن فى حسابهم ، وفى هذا وعيد عظيم وتهديد بالغ ، وقال مجاهد: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات ، وكذا قال السدّى . وقال سفيان الثورى : ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة بن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله : ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لى مالم أكن أحتسب . ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ أى مساوى أعمالهم من الشرك وظلم أولياء الله، و«ما » يحتمل أن تكون المصدرية ، أى سيئات كسبهم ، وأن تكون موصولة ، أى سيئات الذى كسبوه ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى أحاط بهم ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به من الإنذار الذى كان ينذرهم به رسول الله ﷺ .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت ﴾ الآية قال : قست ونفرت ﴿ قلوب ﴾ هؤلاء الأربعة ﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أبو جهل بن هشام والوليد بن عقبة وصفوان وأبىّ بن خلف ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ اللات و العزى: ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾. وأخرج مسلم وأبو داود ،والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته :« اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١).

(١) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٠/ ٢٠٠) وأبو داود فى الصلاة (٧٦٧) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب» والنسائى ٣/ ٢١٣ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٥٧) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ١٤٦.

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾.

قوله: ﴿ فإذا مسّ الإنسان ﴾ المراد بالإنسان هنا : الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها . وقيل : المراد به: الكفار فقط والأوّل أولى ، ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه ؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ وفاء بحقّ النظم القرآنى ووفاء بمدلوله ، والمعنى : أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضرّ من مرض أو فقر أو غيرهما دعا الله وتضرع إليه فى رفعه ودفعه ﴿ ثم إذا خوّلناه نعمة منا ﴾ أى أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿ قال إنما أوتيته على علم ﴾ منى بوجوه المكاسب، أو على خير عندى ، أو على علم من الله بفضلى . وقال الحسن : على علم علمنى الله إياه . وقيل : قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند الله منزلة ، وجاء بالضمير فى أوتيته مذكرا مع كونه راجعا إلى النعمة ؛ لأنها بمعنى الإنعام . وقيل : إن الضمير عائد إلى ما ، وهى موصولة ، والأوّل أولى ﴿ بل هى فتنة ﴾ هذا ردّ لما قاله، أى ليس ذلك الذى أعطيناك لما ذكرت ، بل هو محنة لك واختبار لحالك أتشكر أم تكفر ؟ قال الفراء : أنث الضمير فى قوله : ﴿ هى ﴾ لتأنيث الفتنة ، ولو قال :بل هو فتنة لجاز . وقال النحاس : بل عطيته فتنة . وقيل : تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة ، وتذكير الأوّل فى قوله : ﴿ أوتيته ﴾ باعتبار معناها ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله وامتحان لما عندهم

من الشكر أو الكفر .

﴿ **قد قالها الذين من قبلهم** ﴾ أى قال هذه الكلمة التى قالوها وهى قولهم : إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون وغيره ، فإن قارون قال : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ [القصص : ٧٨] ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ يجوز أن تكون « ما » هذه نافية ، أى لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئا ، وأن تكون استفهامية ، أى أىّ شىء أغنى عنهم ذلك ؟ ﴿ **فأصابهم سيئات ما كسبوا** ﴾ أى جزاء سيئات كسبهم ، أو أصابهم سيئات هى جزاء كسبهم ، وسمى الجزاء سيئات ؛ لوقوعها فى مقابلة سيئاتهم ، فيكون ذلك من باب المشاكلة كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] . ثم أوعد سبحانه الكفار فى عصره فقال : ﴿ **والذين ظلموا من هؤلاء** ﴾ الموجودين من الكفار ﴿ **سيصيبهم سيئات ما كسبوا** ﴾ كما أصاب من قبلهم ، وقد أصابهم فى الدنيا ما أصابهم من القحط والقتل والأسر والقهر ﴿ **وما هم بمعجزين** ﴾ أى بفائتين على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة . ﴿ **أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾ أى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه له ﴿ **ويقدر** ﴾ أى يقبضه لمن يشاء أن يقبضه ويضيقه عليه . قال مقاتل : وعظهم الله ليعتبروا فى توحيده ، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين ، فقال : أولم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء ويقتر على من يشاء ﴿ **إن فى ذلك لآيات** ﴾ أى فى ذلك المذكور لدلالات عظيمة وعلامات جليلة ﴿**لقوم يؤمنون** ﴾ وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها .

ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد عقبه بذكر سعة رحمته وعظيم مغفرته وأمر رسوله ﷺ: أن يبشرهم بذلك ، فقال : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ المراد بالإسراف : الإفراط فى المعاصى والاستكثار منها ومعنى ﴿**لا تقنطوا** ﴾ : لا تيأسوا من رحمة الله من مغفرته . ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ويجعل الرجاء مكان القنوط فقال : ﴿ **إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ .

واعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أوّلا أضاف العباد إلى نفسه؛ لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف فى المعاصى والاستكثار من الذنوب ، ثم عقب ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنهى عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن ، فقال : ﴿ **إن الله يغفر الذنوب** ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده ، فهو فى قوة إن الله يغفر كلّ ذنب كائنا ما كان ، إلا ما أخرجه النصّ القرآنى وهو الشرك : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله: ﴿ **جميعا** ﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادقين فى رجائه ، الخالعين لثياب القنوط الرافضين

لسوء الظنّ بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده المتوجهين إليه فى طلب العفو المتجهين به فى مغفرة ذنوبهم وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا: ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما ، فمن أبى هذا التفضل العظيم والعطاء الجسيم ، وظنّ أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به ، فقد ركب أعظم الشطط وغلط أقبح الغلط ، فإن التبشير وعدم التقنيط الذى جاءت به مواعيد الله فى كتابه العزيز ، والمسلك الذى سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه من قوله : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » (١) .

وإذا تقرّر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] هو أن كلّ ذنب كائنا ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال : إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعا يدل على أنه يشاء غفرانها جميعا ، وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكلّ المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية . وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات . فهو جمع بين الضب والنون ، وبين الملاح والحادى ، وعلى نفسها براقش تجنى ، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع ، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين ، وقد قال : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كانت التوبة قيدا فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة ، وقد قال سبحانه : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ [الرعد : ٦] قال الواحدى : المفسرون كلهم قالوا : إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك وقتل النفس ومعاداة النبى ﷺ .

قلت : هب أنها فى هؤلاء القوم ، فكان ماذا ؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم ، ولوكانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها ، واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله . وفى السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة فى الصحيحين وغيرهما فى هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حقّ معرفته وقدره حقّ قدره علم صحة ما ذكرناه وعرف حقية ما حررناه .

قرأ الجمهور : ﴿ **يا عبادى** ﴾ بإثبات الياء وصلا ووقفا ، وروى أبو بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء . وقرأ الجمهور: ﴿ تقنطوا ﴾ بفتح النون . وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسرها . ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** ﴾ أى ارجعوا إليه

---

(١) أحمد ٣/ ١٣١ والبخارى فى العلم (٦٩) كلاهما عن أنس ومسلم فى الجهاد (١٧٣٢/ ٩٦) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) كلاهما عن أبى موسى الأشعرى .

بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعا، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات واجتناب المعاصى ، وليس فى هذا ما يدلّ على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام ، بل غاية ما فيها أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى ، ثم دعاهم إلى الخير وخوفهم من الشرّ على أنه يمكن أن يقال : إن هذه الجملة مستأنفة خطابا للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله : ﴿ **وأسلموا له** ﴾ جاء بها لتحذير الكفار وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى وتبشيرهم ، وهذا وإن كان بعيدا ولكنه يمكن أن يقال به ، والمعنى على ما هو الظاهر : أن اللّه جمع لعباده بين التبشير العظيم ، والأمر بالإنابة إليه والإخلاص له والاستسلام لأمره والخضوع لحكمه ، وقوله : ﴿ **من قبل أن يأتيكم العذاب** ﴾ أى عذاب الدنيا كما يفيده قوله : ﴿ **من قبل أن يأتيكم** ﴾ فليس فى ذلك ما يدلّ على ما زعمه الزاعمون وتمسك به القانطون المقنطون والحمد للّه رب العالمين .

﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ يعنى : القرآن ، يقول : أحلوا حلاله وحرموا حرامه ، والقرآن كله حسن . قال الحسن : التزموا طاعته واجتنبوا معاصيه . وقال السدّى : الأحسن ما أمر اللّه به فى كتابه . وقال ابن زيد : يعنى المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقيل : الناسخ دون المنسوخ . وقيل : العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام . وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ﴿ **من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾ أى من قبل أن يفاجئكم العذاب وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به . وقيل : أراد أنهم يموتون بغتة فيقعون فى العذاب . والأوّل أولى لأن الذى يأتيهم بغتة هو العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر والقهر والخوف والجدب ، لا عذاب الآخرة ولا الموت ؛ لأنه لم يسند الإتيان إليه . ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت فى جنب الله** ﴾ قال البصريون : أى حذرا أن تقول . وقال الكوفيون : لئلا تقول . قال المبرد : بادروا خوف أن تقول ، أو حذرا من أن تقول نفس . وقال الزجاج : خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها : يا حسرتا على ما فرّطت فى جنب اللّه . قيل : والمراد بالنفس هنا النفس الكافرة . وقيل : المراد به التكثير كما فى قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير: ١٤] قرأ الجمهور: ﴿ **يا حسرتا** ﴾ بالألف بدلا من الياء المضاف إليها ،والأصل : يا حسرتى ، وقرأ ابن كثير : « يا حسرتاه » بهاء السكت وقفا. وقرأ أبو جعفر : « يا حسرتى » بالياء على الأصل . والحسرة : الندامة ، ومعنى ﴿ **على ما فرّطت فى جنب الله** ﴾ : على ما فرطت فى طاعة اللّه، قاله الحسن . وقال الضحاك : على ما فرطت فى ذكر اللّه ، ويعنى به القرآن والعمل به . وقال أبو عبيدة ﴿ **فى جنب الله** ﴾: أى فى ثواب اللّه. وقال الفراء : الجنب : القرب والجوار ، أى فى قرب اللّه وجواره ، ومنه قوله : ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ [النساء : ٣٦]. والمعنى على هذا القول على ما فرّطت فى طلب جنب اللّه ، أى فى طلب جواره وقربه وهو الجنة ، وبه قال ابن الأعرابى . وقال الزجاج : أى فرّطت فى الطريق الذى هو طريق اللّه من توحيده ،

والإقرار بنبوّة رسول الله ﷺ ، وعلى هذا فالجنب بمعنى الجانب ، أى قصرت فى الجانب الذى يؤدى إلى رضا الله ، ومنه قول الشاعر :

للناس جنب والأمير جنب

أى الناس من جانب والأمير من جانب ﴿ **وإن كنت لمن الساخرين** ﴾ أى وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله فى الدنيا ، ومحل الجملة النصب على الحال . قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها . ﴿ **أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين** ﴾ أى لو أن الله أرشدنى إلى دينه لكنت ممن يتقى الشرك والمعاصى ، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة ، ويتعللون به من العلل الباطلة كما فى قوله : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] فهى كلمة حقّ يريدون بها باطلا . ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوا فقال : ﴿ **أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرّة** ﴾ أى رجعة إلى الدنيا ﴿ **فأكون من المحسنين** ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له ، والمحسنين فى أعمالهم ، وانتصاب أكون ، إما لكونه معطوفا على ﴿ **كرّة** ﴾ فإنها مصدر ، وأكون فى تأويل المصدر ، كما فى قول الشاعر :

للبـــس عباءة وتقرّ عينى أحبّ إلىّ من لبس الشفوف

وأنشد الفرّاء على هذا :

فما لك منها غير ذكرى وخشية وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وإما لكونه جواب التمنى المفهوم من قوله : ﴿ **لو أن لى كرّة** ﴾ . ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة فقال : ﴿ **بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين** ﴾ . المراد بالآيات : هى الآيات التنزيلية وهو القرآن ، ومعنى التكذيب بها قوله : إنها ليست من عند الله وتكبر عن الإيمان بها، وكان مع ذلك التكذيب والاستكبار من الكافرين بالله. وجاء سبحانه بخطاب المذكر فى قوله: جاءتك وكذّبت واستكبرت وكنت ؛ لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب : نفس واحد ، أى إنسان واحد ، وبفتح التاء فى هذه المواضع قرأ الجمهور . وقرأ الجحدرى وأبو حيوة ويحيى بن يعمر بكسرها فى جميعها ، وهى قراءة أبى بكر وابنته عائشة وأمّ سلمة ، ورويت عن ابن كثير . ﴿**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة** ﴾ أى ترى الذين كذبوا على الله بأن له شركاء وصاحبة وولدا وجوههم مسودّة لما أحاط بهم من العذاب وشاهدوه من غضب الله ونقمته ، وجملة: ﴿ **وجوههم مسودّة** ﴾ فى محل نصب على الحال. قال الأخفش : ﴿ **ترى** ﴾ غير عامل فى ﴿ **وجوههم مسودّة** ﴾ ، إنما هو مبتدأ وخبر ، والأولى أن ﴿ **ترى** ﴾ إن كانت من الرؤية البصرية ، فجملة ﴿ **وجوههم مسودّة** ﴾ حالية، وإن كانت قلبية فهى فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لترى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾

للتقرير ، أى أليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة الله ؟ والكبر هو: بطر الحقّ وغمط الناس كما ثبت فى الحديث الصحيح (١) .

﴿ وينجى الله الذين اتقوا ﴾ أى اتقوا الشرك ومعاصى الله ، والباء فى :﴿ بمفازتهم ﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول ، أى ملتبسين بمفازتهم . قرأ الجمهور﴿ بمفازتهم ﴾ بالإفراد على أنها مصدر ميمىّ . والفوز : الظفر بالخير والنجاة من الشر . قال المبرد : المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة ، وإن جمع فحسن ، كقولك : السعادة والسعادات. والمعنى : ينجيهم الله بفوزهم ، أى بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر: « بمفازاتهم » جمع مفازة ، وجمعها مع كونها مصدرا لاختلاف الأنواع ، وجملة : ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ فى محل نصب على الحال من الموصول ، وكذلك جملة : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ فى محل نصب على الحال، أى ينفى السوء والحزن عنهم ، ويجوز أن تكون الباء فى:﴿ بمفازتهم ﴾ للسببية ، أى بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم ؛ لأنهم رضوا بثواب الله وأمنوا من عقابه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ـ قال السيوطى : بسند صحيح ـ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا ﴾ الآية ، فى مشركى أهل مكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : كنا نقول : ليس لمفتتن توبة وما الله بقابل منه شيئا ، عرفوا الله وآمنوا به وصدّقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولونه لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله فيهم ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا ﴾ الآيات ؛ قال ابن عمر : فكتبتها بيدى ، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاص(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى مُتَعِيد قال : لما أسلم وحشى أنزل الله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ [الفرقان : ٦٨] قال وحشىّ وأصحابه : فنحن قد ارتكبنا هذا كله، فأنزل الله : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا ﴾ الآية . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة قال : خرج النبىّ ﷺ على رهط من أصحابه وهم يضحكون ويتحدّثون فقال : «والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، ثم انصرف وبكى القوم ، وأوحى الله إليه: يا محمد لم تقنط عبادى فرجع النبىّ ﷺ فقال : «أبشروا وسدّدوا وقاربوا » . وأخرج ابن مردويه، والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب، أنها نزلت فيمن أفتن . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنها نزلت فى مشركى مكة لما قالوا : إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك وقتل الأنفس وغير ذلك .

---

(١) أحمد ١/ ٣٨٥ ومسلم فى الإيمان (٩١/ ١٤٧) والترمذى فى البر (١٩٩٩) وقال:« هذا حديث حسن صحيح» .

(٢) ابن جرير ٢٤/ ١١ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٤ : « فيه محمد بن إسحاق وهو ثقة ولكنه مدلس » ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٥ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٤٦٢ وفى الشعب (٧١٣٨). ط . دار الكتب العلمية .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما أحبّ أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ » إلى آخر الآية ، فقال رجل: ومن أشرك ؟ فسكت النبى ﷺ ، قال : « ألا ومن أشرك » ثلاث مرات (١) . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف والحاكم وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى إنه هو الغفور الرحيم »(٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أنه مرّ على قاض يذكر الناس فقال : يا مذكر الناس لا تقنط الناس ، ثم قرأ : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال : قال علىّ : أىّ آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن : ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه﴾ الآية [النساء: ١١٠] ونحوها ، فقال على : ما فى القرآن أوسع آية من : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية قال : قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن الله ، ومن زعم أن عزيرا ابن الله ، ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء من قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال :﴿ ما علمت لكم من إله غيرى﴾ [القصص :٣٨] قال ابن عباس: ومن آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **أن تقول نفس** ﴾ قال : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا ، وعلمهم قبل أن يعلموا .

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ

(١) أحمد ٥/ ٢٧٥ وابن جرير ٢٤/ ١٢ والبيهقى فى الشعب (٧١٣٧) . ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٦/ ٤٥٤ والترمذى فى التفسير (٣٢٣٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والحاكم ٢/ ٢٤٩ وقال : «هذا حديث غريب عالٍ » ، وسكت عنه الذهبى .

فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾.

قوله : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ من الأشياء الموجودة فى الدنيا والآخرة كائنا ما كان من غير فرق بين شيء وشيء . وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى الأنعام ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أى الأشياءكلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير مشارك له . ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ المقاليد واحدها مقليد ومقلاد أو لا واحد له من لفظه كأساطير ، وهى مفاتيح السموات والأرض والرزق والرحمة . قاله مقاتل وقتادة وغيرهما . وقال الليث : المقلاد: الخزانة ، ومعنى الآية : له خزائن السموات والأرض ، وبه قال الضحاك والسدّى . وقيل : خزائن السموات : المطر، وخزائن الأرض : النبات . وقيل : هى عبارة عن قدرته سبحانه وحفظه لها ، والأوّل أولى . قال الجوهرى : الإقليد : المفتاح ، ثم قال : والجمع المقاليد . وقيل : هى لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقيل غير ذلك . ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ أى بالقرآن وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه وتوحيده ، ومعنى ﴿ الخاسرون ﴾ : الكاملون فى الخسران لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار .

﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره، و ﴿ غير ﴾ منصوب بـ ﴿ أعبد ﴾ وأعبد معمول لـ ﴿ تأمرونى ﴾ على تقدير أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها ، والأصل : أفتأمرونى أن أعبد غير الله ؟ قاله الكسائى وغيره . ويجوز أن يكون غير منصوبا بتأمرونى ، وأعبد بدل منه بدل اشتمال ، وأن مضمرة معه أيضا . ويجوز أن يكون غير منصوبة بفعل مقدر ، أى أفتلزمونى غير الله ؟ أى عبادة غير الله أو أعبد غير الله أعبد . أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا :هو دين آبائك . قرأ الجمهور : ﴿ تأمرونى ﴾ بإدغام نون الرفع فى نون الوقاية على خلاف بينهم فى فتح الياء وتسكينها . وقرأ نافع : « تأمرونى » بنون خفيفة وفتح الياء ، وقرأ ابن عامر :-«تأمروننى » بالفك وسكون الياء .

﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ أى من الرسل ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل ؛ لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والإنذار للعباد من الشرك ؛ لأنه إذا كان موجبا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى . قيل : وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ولقد أوحى إليك لئن أشركت وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أى أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف ، ثم قال : لئن أشركت يا محمد ليحبطن عملك ، وهو خطاب للنبى ﷺ خاصة. وقيل : إفراد الخطاب فى قوله : ﴿ لئن أشركت ﴾ باعتبار كل واحد من الأنبياء ، كأنه قيل : أوحى إليك وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام . وهو لئن أشركت ، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما فى الآية الأخرى : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ [البقرة : ٢١٧] وقيل : هذا خاص بالأنبياء لأن الشرك منهم أعظم ذنبا من الشرك من غيرهم، والأوّل أولى،ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بتوحيده ، فقال : ﴿ بل الله فاعبد ﴾ وفى هذا ردّ على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام ، ووجه الردّ ما يفيده التقديم من القصر. قال الزجاج : لفظ اسم الله منصوب بـ ﴿ أعبد ﴾ قال : ولا اختلاف فى هذا بين البصريين والكوفيين . وقال الفراء : هو منصوب بإضمار فعل ، وروى مثله عن الكسائى ، والأوّل أولى . قال الزجاج : والفاء فى : ﴿فاعبد﴾ للمجازاة . وقال الأخفش: زائدة. قال عطاء ومقاتل معنى ﴿ فاعبد ﴾ : وحد ، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والدعاء إلى دينه واختصك به من الرسالة .

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ قال المبرد : أى ما عظموه حق عظمته ، من قولك : فلان عظيم القدر ، وإنما وصفهم بهذا ؛ لأنهم عبدوا غير الله وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم فى الشرك . وقرأ الحسن وأبو حيوة وعيسى بن عمر : « قدّروا» بالتشديد ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ﴾ القبضة فى اللغة : ما قبضت عليه بجميع كفك ، فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها وكثافتها فى مقدوره كالشىء الذى يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو فى يد فلان وفى قبضته للشىء الذى يهون عليه التصرف فيه وإن لم يقبض عليه ، وكذا قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ فإن ذكر اليمين للمبالغة فى كمال القدرة كما يطوى الواحد منا الشىء المقدور له طية بيمينه ، واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك . قال الأخفش :بيمينه يقول : فى قدرته ، نحو قوله : ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : ٣] أى ما كانت لكم قدرة عليه ، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر الجسد ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ [الحاقة : ٤٥] أى بالقوّة والقدرة ، ومنه قول الشاعر :

إذا مـــا رايـــة نصبت لمجد تلقـاها عرابـة باليمـين

وقول الآخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتى بيمين

وقول الآخر :

عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غـير قائم

وجملة : ﴿ **والأرض جميعا قبضته** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى ما عظموه حق تعظيمه ، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة. قرأ الجمهور برفع: ﴿**قبضته**﴾ على أنها خبر المبتدأ ، وقرأ الحسن بنصبها، ووجهه ابن خالويه بأنه على الظرفية ، أى فى قبضته . وقرأ الجمهور : ﴿ **مطويات** ﴾ بالرفع على أنها خبر المبتدأ ، والجملة فى محل نصب على الحال كالتى قبلها ، و ﴿ **بيمينه** ﴾ متعلق بـ ﴿ **مطويات** ﴾ ، أو حال من الضمير فى : ﴿**مطويات** ﴾ أو خبر ثان ، وقرأ عيسى والجحدرى بنصب :« مطويات » ووجه ذلك أن ﴿**السموات** ﴾ معطوفة على ﴿ **الأرض** ﴾، وتكون ﴿ **قبضته** ﴾ خبرا عن الأرض والسموات ، وتكون ﴿**مطويات**﴾ حالا ، أو تكون ﴿**مطويات**﴾ منصوبة بفعل مقدّر ، و ﴿**بيمينه** ﴾ الخبر ، وخصّ يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة؛ لأن الدعاوى تنقطع فيه كما قال سبحانه : ﴿ الملك يومئذ لله ﴾ [الحج : ٥٦] وقال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : ٤] ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة والحكمة الباهرة .

﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ هذه هى النفخة الأولى ، والصور: هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدّم غير مرة ، ومعنى صعق : زالت عقولهم فخرّوا مغشيا عليهم ، وقيل : ماتوا . قال الواحدى : قال المفسرون : مات من الفزع وشدة الصوت أهل السموات والأرض . قرأ الجمهور : ﴿**الصور**﴾ بسكون الواو ، وقرأ قتادة وزيد بن على بفتحها جمع صورة ، والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ متصل ، والمستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل : رضوان وحملة العرش وخزنة الجنة والنار ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى** ﴾ يجوز أن يكون ﴿ **أخرى**﴾ فى محل رفع على النيابة وهى صفة لمصدر محذوف ، أى نفخة أخرى ، ويجوز أن يكون فى محل نصب والقائم مقام الفاعل فيه ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ يعنى الخلق كلهم قيام على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم أو ينتظرون ذلك . قرأ الجمهور : ﴿ **قيام** ﴾ بالرفع على أنه خبر ، و﴿ **ينظرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وقرأ زيد بن على بالنصب على أنه حال ، والخبر: ﴿ **ينظرون** ﴾ ، والعامل فى الحال ما عمل فى إذا الفجائية . قال الكسائى : كما تقول : خرجت فإذا زيد جالسا .

﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ الإشراق: الإضاءة ، يقال: أشرقت الشمس: إذا أضاءت ،

وشرقت : إذا طلعت ، ومعنى ﴿ **بنور ربها** ﴾ : بعدل ربها ، قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ، والمعنى : أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها ، وما قضى به من الحق فيهم ، فالعدل نور والظلم ظلمات . وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر ، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي ، فإن الله سبحانه هو نور السموات والأرض . قرأ الجمهور : ﴿ **أشرقت** ﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعبيد بن عمير على البناء للمفعول ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ . وقال قتادة : يعني : الكتب والصحف التى فيها أعمال بنى آدم فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ، وكذا قال مقاتل . وقيل : هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أى وضع الكتاب للحساب ﴿ **وجيء بالنبيين** ﴾ أى جيء بهم إلى الموقف فسئلوا عما أجابتهم به أممهم ﴿ **والشهداء** ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد ﷺ كما فى قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة:١٤٣] وقيل : المراد بالشهداء : الذين استشهدوا فى سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله . وقيل: هم الحفظة كما قال تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : ٢١] ﴿**وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ أى وقضى بين العباد بالعدل والصدق، والحال أنهم لا يظلمون ، أى لا ينقصون من ثوابهم ولا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم . ﴿ **ووفيت كل نفس ما عملت** ﴾ من خير وشرّ ﴿ **وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ فى الدنيا لا يحتاج إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد ، وإنما وضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة .

ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا** ﴾ أى سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمرا ، أى جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضا . قال أبو عبيدة والأخفش ، زمرا : جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ، ومنه قول الشاعر :

وترى الناس إلى أبوابه زمرا تنتابه بعد زمر

واشتقاقه من الزمر ، وهو الصوت ، إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿ **حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها** ﴾ أى فتحت أبواب النار ليدخلوها ، وهى سبعة أبواب ، وقد مضى بيان ذلك فى سورة الحجر ﴿ **وقال لهم خزنتها** ﴾ جمع خازن نحو سدنة وسادن ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ أى من أنفسكم ﴿ **يتلون عليكم آيات ربكم** ﴾ التى أنزلها عليهم ﴿**وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ أى يخوّفونكم لقاء هذا اليوم الذى صرتم فيه ، قالوا لهم هذا القول تقريعا وتوبيخا ، فأجابوا بالاعتراف ولم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا لانكشاف الأمر وظهوره ، ولهذا قالوا : ﴿**بلى** ﴾ أى قد أتتنا الرسل بآيات الله وأنذرونا بما سنلقاه ﴿ **ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ وهى: ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة : ١٣]، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قيل: ﴿ **ادخلوا أبواب جهنم** ﴾ التى قد فتحت لكم لتدخلوها .

وانتصاب ﴿ خالدين ﴾ على الحال ، أى مقدّرين الخلود ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف ، أى بئس مثواهم جهنم ، وقد تقدّم تحقيق المثوى فى غير موضع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ قال: مفاتيحها . وأخرج أبو يعلى ، ويوسف القاضى فى سننه ، وأبو الحسن القطان وابن السنى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال لى : « يا عثمان ، لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك ، مقاليد السموات والأرض : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وأستغفر الله الذى لا إله إلا هو ، الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن ، يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير » ؛ ثم ذكر فضل هذه الكلمات(١). وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس أن عثمان بن عفان جاء إلى النبىّ ﷺ فقال له : أخبرنى عن مقاليد السموات والأرض ، فذكره . وأخرجه الحارث بن أبى أسامة وابن مردويه عن أبى هريرة عن عثمان . وأخرجه العقيلى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عمر عن عثمان (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ويطأون عقبه ، فقالوا له : هذا لك عندنا يا محمد وتكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء ، قال : « حتى أنظر ما يأتينى من ربى » ، فجاء بالوحى : ﴿قل يأيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة [سورة الكافرون]. وأنزل الله عليه : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله : ﴿ من الخاسرين ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على أصبع والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ﴾ (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » (٤). وفى الباب أحاديث وآثار تقتضى حمل الآية على ظاهرها

---

(١) ذكره ابن كثير٦ / ١٠٦ بأطول من هذا وقال : « وفى صحته نظر ، ورواه أبو يعلى وهو غريب وفيه نكارة شديدة » .

(٢) البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٤١ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ١١٨ : « فيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف » .

(٣) أحمد ١/ ٤٥٧ والبخارى فى التوحيد (٧٤١٤) ومسلم فى صفات المنافقين (١٩/٢٧٨٦) والترمذى فى التفسير (٣٢٣٨) .

(٤) أحمد ٢/ ٣٧٤ والبخارى فى التوحيد (٧٣٨٢) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٧ / ٢٣) والنسائى فى التفسير (٤٧٥) وابن ماجة فى المقدمة (١٩٢) .

من دون تكلف لتأويل ولا تعسف لقال وقيل ...

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذى اصطفى موسى على البشر ، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ، فقال : أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ ؟ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « قال الله : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ فأكون أول من يرفع رأسه ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى ، أو كان ممن استثنى الله »(١) . وأخرج أبو يعلى ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ قال : « هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة » الحديث . وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من أقوال أبى هريرة . وأخرج الفريابى وابن جرير ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة وابن مردويه عن أنس أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ فقال : « جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش »(٢) . وأخرج ابن المنذر عن جابر فى قوله: ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ قال : موسى ؛ لأنه كان صعق قبل . والأحاديث الواردة فى كيفية نفخ الصور كثيرة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجىء بالنبيين والشهداء** ﴾ قال : النبيين : الرسل، والشهداء : الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان ولا لعان . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه فى الآية قال : يشهدون بتبليغ الرسالة وتكذيب الأمم إياهم .

﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾.

لما ذكر فيما تقدم حال الذين كفروا وسوقهم إلى جهنم ، ذكر هنا حال المتقين وسوقهم إلى الجنة فقال : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا** ﴾ أى ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم . وقد سبق بيان معنى الزمر ﴿ **حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها** ﴾ جواب إذا محذوف . قال المبرد : تقديره : سعدوا وفتحت ، وأنشد قول الشاعر :

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

---

(١) البخارى فى الخصومات (٢٤١١) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٣/ ١٦٠) وأبو داود فى السنة (٤٦٧١) والنسائى فى التفسير (٤٧٧) .

(٢) ابن جرير ٢٤/ ٢٠ .

فحذف جواب لو ، والتقدير : لكان أروح . وقال الزجاج : القول عندى أن الجواب محذوف على تقدير : حتى إذا جاؤوها ، وكانت هذه الأشياء التى ذكرت دخلوها فالجواب دخولها ، وحذف لأن فى الكلام دليلا عليه. وقال الأخفش والكوفيون : الجواب: ﴿ **فتحت** ﴾ والواو زائدة ، وهو خطأ عند البصريين ، لأن الواو من حروف المعانى فلا تزاد . وقيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله ، والتقدير: حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ [ص : ٥٠] وحذفت الواو فى قصة أهل النار ؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا . ذكر معناه النحاس منسوبا إلى بعض أهل العلم ، قال: ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد . وعلى هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد ، أى جاؤوها وقد فتحت لهم الأبواب . وقيل : إنها واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون فى العدد : خمسة ستة سبعة وثمانية ، وقد مضى القول فى هذا فى سورة براءة مستوفى وفى سورة الكهف أيضا .

ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال : ﴿ **وقال لهم خزنتها سلام عليكم** ﴾ أى سلامة لكم من كلّ آفة ﴿ **طبتم** ﴾ فى الدنيا فلم تتدنسوا بالشرك والمعاصى . قال مجاهد : طبتم بطاعة الله . وقيل : بالعمل الصالح، والمعنى واحد . قال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم ، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه : ﴿**سلام عليكم** ﴾ الآية ﴿ **فادخلوها** ﴾ أى ادخلوا الجنة ﴿ **خالدين** ﴾ أى مقدّرين الخلود ، فعند ذلك قال أهل الجنة : ﴿ **الحمد لله الذى صدقنا وعده** ﴾ بالبعث والثواب بالجنة ﴿ **وأورثنا الأرض** ﴾ أى أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم فملكوها وتصرفوا فيها . وقيل : إنهم ورثوا الأرض التى كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين . قاله أكثر المفسرين . وقيل : إنها أرض الدنيا ، وفى الكلام تقديم وتأخير ﴿ **نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾ أى نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء ﴿**فنعم أجر العاملين**﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أى فنعم أجر العاملين الجنة ، وهذا من تمام قول أهل الجنة . وقيل : هو من قول الله سبحانه : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش** ﴾ أى محيطين محدقين به ، يقال : حفّ القوم بفلان : إذا أطافوا به ، و«من » مزيدة . قاله الأخفش ، أو للابتداء ، والمعنى : أن الرائى يراهم بهذه الصفة فى ذلك اليوم ، وجملة : ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم مسبحين لله ملتبسين بحمده ، وقيل: معنى ﴿ **يسبحون** ﴾ يصلون حول العرش شكرا لربهم ، والحافين جمع حافّ ، قاله الأخفش . وقال الفراء : لا واحد له إذ لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين ﴿**وقضى بينهم بالحق** ﴾ أى بين العباد بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار ، وقيل : بين النبيين اللذين جىء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق ، وقيل : بين الملائكة بإقامتهم فى منازلهم على حسب درجاتهم ، والأوّل أولى . ﴿ **وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ القائلون هم المؤمنون ، حمدوا الله

على قضائه بينهم وبين أهل النار بالحق . وقيل : القائلون هم الملائكة حمدوا الله تعالى على عدله فى الحكم وقضائه بين عباده بالحقّ .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب درّى فى السماء إضاءة » (١) . وأخرجا وغيرهما عن سهل بن سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب الريان لا يدخله إلا الصائمون » (٢) . وقد ورد فى كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث فى الصحيحين وغيرهما . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأورثنا الأرض** ﴾ قال : أرض الجنة . وأخرج هناد عن أبى العالية مثله .

---

(١) أحمد ٢ / ٢٣٠ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣٤/ ١٥) وابن ماجة فى الزهد (٤٣٣٣) وأخرجه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥٢٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) أحمد ٥/ ٣٣٣ والبخارى فى الصوم (١٨٩٦) ومسلم فى الصيام (١١٥٢/ ١٦٦) والترمذى فى الصوم (٧٦٥) وقال : « حديث حسن صحيح غريب » والنسائى ٤/ ١٦٨ وابن ماجة فى الصيام (١٦٤٠).